

صورة الشيوعي في الرواية المتوسطية المعاصرة: دراسة في روايتي: "عن إخواننا الجرحى" لـ جوزيف أوندراس،
و"رعاة أركاديا" لـ محمد فتيلينة

The Image of the Communist in Contemporary Mediterranean Fiction: A Study of the Novels "Of Our Wounded Brothers" by Joseph Ondras and "The Shepherds of Arcadia" by Mohamed Fetiline

سليم ناجي¹، حميدبوحبيب²

¹ جامعة الجزائر 02- أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، nadjisalim25@gmail.com

² جامعة الجزائر 02- أبو القاسم سعد الله (الجزائر)، hamidboubib@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2026/05/31 تاريخ القبول: 2026/09/08 تاريخ النشر: 2026/10/01

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى رصد أهم ملامح الصورة التي قدمتها الرواية المتوسطية المعاصرة عن الشيوعي انطلاقاً من نموذجين روائيين لثقافتين مختلفتين يجمعهما حوض المتوسط و موضوع مناهضة الكولونيالية من طرف الشيوعية بالمنطقة المتوسطية:

الأول بعنوان "عن إخواننا الجرحى" للكاتب الفرنسي جوزيف أوندراس الذي اختار شخصية المناضل الشيوعي في صفوف جبهة التحرير فرنان إيفتون ليكون بطل روايته، والثاني بعنوان "رعاة أركاديا" للكاتب الجزائري محمد فتيلينة، الذي اختار فيه شخصية المناضلة الشيوعية في صفوف جبهة التحرير ريموند بيشار، لتكون أحد أبطال روايته. وذلك من خلال رصد جميع الجوانب المحيطة بشخصية الشيوعي في الروايتين، وفهم ملامح الصورة التي قدمها كل روائي عن الشيوعي، محاولين الوصول إلى ذلك التوافق بين التجريبتين الروائيتين في رسم شخصية الشيوعي، الذي فرضه السياق ما بعد الكولونيالي، والوقوف على مدى تركيز كل روائي على جانب معين من جوانب تلك الصورة.

كلمات مفتاحية: صورة، شيوعي، رواية متوسطية معاصرة

Abstract:

This research aims to identify the most prominent features of the image of the communist presented in contemporary Mediterranean novels, drawing on two novels from two different cultures united by the Mediterranean basin and the theme of communist anti-colonialism in the Mediterranean region:

The first, "Of Our Wounded Brothers," by the French writer Joseph Ondras, who chose the character of the communist fighter in the National Liberation Front (FLN), Fernand Iveton, as his protagonist; and the second, "The Shepherds of Arcadia," by the Algerian writer Mohamed Fetiline, who chose the character of the communist fighter in the FLN, Raymonde Pichard, as one of his protagonists. This is achieved by examining all

aspects surrounding the communist character in both novels, understanding the features of the image presented by each novelist, attempting to find common ground between the two novels in portraying the communist character, an image imposed by the post-colonial context, and determining the extent to which each novelist focused on a specific aspect of that image.

Keywords: Image, Communist, Contemporary Mediterranean Novel

*المؤلف المرسل: سليم ناجي

1. مقدمة

يبدو أن اهتمام الأديب المعاصر بتقديم صور عن حياة الأشخاص والمجتمعات والشعوب من خلال عالمه الروائي الذي يسمح له بتمثيل الآخرين أصبح يمثل تيمة أساسية في العمل الأدبي. هذا الاهتمام لم يأت اعتباطاً، إنما فرضته جدلية التفاعل بين الأنا والآخر على كل الأصعدة: ثقافياً، جيوسياسياً، وأدبياً.

فالغرب الذي يرى في وجود الآخر غير الغربي تهديداً لوجوده "هو" يسعى دائماً إلى تشويهه وتنميط صورته، بالمقابل فإن الشعوب الأخرى، وخصوصاً التي ذاقت مرارة التجربة الاستعمارية على يد الغرب، تسعى جاهدة إلى تصحيح تلك الصورة من أجل إثبات وجودها، ومن أجل اقتراح قراءة مغايرة للتاريخ.

وهذا ما يؤكد أهمية الصورة في الأعمال الإبداعية من جهة، وأهمية التمثيلات الثقافية التي ينتجها الخطاب الروائي، انطلاقاً من طبيعة العلاقة بين المبدع والمتلقي المختلف الذي يقع في الضفة الأخرى المقابلة.

لقد ركز أصحاب الرواية المتوسطية الحديثة التي اهتمت كثيراً بقضايا التحرر، كغيرها من التجارب الروائية العالمية، على إشكالية الصورة، والتمثيلات الثقافية في محاولة منهم لإبراز حياة الشعوب التي عاشت التجربة الاستعمارية من الجانبين: المستعمر والمستعمر. وبما أن قضايا التحرر ارتبطت بشكل مباشر بالشيوعية التي كثفت نشاطها في مناطق الصراع -منها حوض المتوسط- وتموقعت كتنظيم مناهض للاستعمار. فإن اهتمامنا بموضوع الصورة يقودنا إلى محاولة رصد الصورة التي رسمتها الرواية المتوسطية، لحملة هذا الزخم الإيديولوجي المندرج تحت لواء عام هو الشيوعية، بصرف النظر عن الاختلافات الدقيقة بين تنظيم وآخر ضمن الأهمية الشيوعية وروافدها وتياراتها الكثيرة.

سيكون اهتمامنا في هذا المقام، محصوراً في روايتين: "عن إخواننا الجرحى" للأديب الفرنسي جوزيف أوندراس، و "رعاة أركاديا" للأديب الجزائري محمد فتيلينة، باعتبار أن موضوع الروايتين يدور حول نشاط الخلايا الشيوعية بالجزائر وفرنسا خلال الحقبة الكولونيالية، وبطلا الروايتين هما المناضل الشيوعي فرنان إيفتون والمناضلة الشيوعية ريموند بيشار.

السؤال:

ما الصورة التي قدّمها كلّ من أوندراس و فتيلينة عن الشيوعي الذي يعتبر في أغلب أحداث الروايتين "أنا" بالنسبة لأوندراس و "أخرا" بالنسبة لفتيلينة، وضمن أي موقف من مواقف الصورائية يمكن أن ندرج الصورة التي قدّمها كل روائي؟ وما مدى اتفاقهما وما مدى اختلافهما؟. بعبارة أخرى أين تكمن مواطن الاتفاق والاختلاف بينهما؟

قبل التطرق مباشرة إلى تلك الصورة لا بد أن نذكر ببعض القضايا والمفاهيم، كعلم الصورة و علاقة الصورة بالأدب وأنواع الصورة.

2. علم الصورة

يعد علم الصورة أو ما يعرف بـ "الصورولوجيا، الصورائية، الصورية، الصوريات" أحد أكثر حقول الأدب المقارن اهتماما بالعلاقات بين الشعوب واحتكاكها وتواصلها الثقافي، كونه يهتم بما يصوره الأدب في نتاجاته عن الثقافات والمجتمعات في لحظة اتصالية ما، ممّا يسمح بإجلاء الغموض الذي يعتري الصور الخاطئة التي تقدمها الأمم لغيرها نتيجة سوء الفهم وقلة الاطلاع ، وعدم الوقوف على الحقائق. وهو العلم "الذي يُعنى بدراسة الصور الثقافية التي رسمتها الشعوب عن بعضها ، المنبثقة من تحت وطأة غياب أو المتسربة من مسكوت عنه وتهتم برصد انطباعات المجتمعات، الرابضة في مخيال الوعي الجمعي، التي تنمّ على أنساق معرفية عامة" (نوافل، 2012، صفحة 644)

3. أنواع الصورة

تنقسم الصورة الأدبية إلى:

3. 1 الصورة النمطية: هي تلك الصورة الجاهزة مسبقا عن الآخر، حيث تتمثل في تصور يتّصف بـ "التصلب والتبسيط المفرط لجماعة ما، يتم على ضوئه وصف الآخرين وتصنيفهم استنادا إلى مجموعة من الخصائص والسمات المميزة لتلك الجماعة" (ساري، 1999، الصفحات 761-762). فهي فعل ذهني في الأساس يلعب دورا أساسيا في تحديد علاقة الأنا بالآخر.

3. 2 الصورة المرجعية: وهي التي تركز على خلفية ومرجعية فكرية وثقافية يتوحد بها المجتمع في ذاته، تكون معادلا موضوعيا لصورة الذات وهي عكس الصورة النمطية والأفكار المقبولة التي تنطلق دون سند واقعي أو حقيقي ملموس. "وتشترط هذه الصورة وجود علاقات اجتماعية فعلية ومباشرة داخل الجماعة، كما تشترط تراثا ثقافيا يوجه الأفراد ... وهي بذلك تصير ذات قوة كبيرة لا تضاهي في تصور وفهم العالم أو الآخر بصورة مباشرة وأنية" (بسيوني، 2013، صفحة 71)

4. الصورة والموقف من الآخر:

من خلال الدراسات التي عنيت بالصورة، تبينت ثلاث مواقف أساسية تنتج عادة عن التمثلات الثقافية العامة التي يروجها كل طرف عن الآخر، وهي على النحو التالي:

4. 1 الهوس (الإعجاب الشديد): وهو المبالغة في الإعجاب بالآخر الأجنبي المنظور إليه وثقافته، حيث يتناول الناظر كونه أكثر منه كصورة.

وفي هذا المجال يقول دانييل هنري باجو: "الهوس يعد الواقع الأجنبي، بالنسبة للكاتب أو الجماعة، متفوقا حتما على الثقافة النازرة، أي الثقافة الأصلية. هذا التفوق يؤثر جزئيا أو كليا في الثقافة الأجنبية المنظورة. ومن نتيجة ذلك بالنسبة للثقافة الأصلية أن الكاتب أو الجماعة تعدّها أقل مستوى في موازنة التفضيل الإيجابي للأجنبي هناك رؤية سلبية انتقاصية للثقافة الأصلية" (باجو، 1997، صفحة 107)

إن الانهيار بثقافة الآخر والانتقاص من الثقافة الأصلية يسهم بشكل كبير في انتشار الصور المغلوطة عن الذات والآخر معا.

4. 2 الرهاب (الرغبة أو الرفض): وهو مخالف للهوس، عادة ما ينتج عن العلاقات العدائية بين الشعوب، إذ تتكون صورة سلبية عن الآخر (المعادي)، بفعل العلاقات المتوترة التي تولد مشاعر عدائية بين الطرفين، أو بسبب سوء الفهم أحيانا، مما يضع الواقع الثقافي الأجنبي في مرتبة أدنى من الثقافة المحلية. وتتجلى هذه الصورة عند أدباء المستعمرات خاصة، حيث يقدم المستعمر الآخر الأجنبي في صورة سلبية منفزة من خلال أصوات أدبية وفيه للبلد الأم.

4. 3 التسامح (القبول والانفتاح): وهو موقف ترسمه مشاعر الاعتدال لدى "الأنا" النازرة، ويسهم في الانفتاح على الآخر لفتح قنوات الحوار والمبادلات الحضارية بين الشعوب من خلال تقديم صورة موضوعية عن الآخر.

5. صورة الشيوعي في الروايتين (عن أخواننا الجرحى/ رعاة أركاديا)

إن ملامح صورة الشخصية في أي رواية لا تتشكل فقط من الأوصاف والنعوت التي يطلقها السارد عليها، ولا من خلال ما تقوله عنها بقية الشخصيات في عالم الرواية، بل تتشكل أكثر من خلال الأفعال التي تقوم بها وموقفها من الآخرين ورؤيتها لذاتها وللعالم.

لذلك فإن الحديث عن صورة الشيوعي في الروايتين يفرض علينا استحضار تلك الشخصيات الشيوعية التي وظفها كل روائي والمواقف التي عاشتها خلال أحداث الروايتين، وذلك بتتبع الأعمال التي قامت بها وردود الأفعال التي واجهتها، بالإضافة إلى البحث في علاقاتها مع غيرها ورصد ردود أفعالها هي، ومعرفة المكانة التي حظيت بها في تلك البيئة.

مثل الجانب الشيوعي عند أوندراش أفراد الخلية الشيوعية التي كان فرنان إيفتون ينشط ضمنها، وهم: فرنان إيفتون، جيلالي المعروف باسم عبد القادر تارة ولوسيان تارة أخرى، جاكين، حشلاف، فابيان، طالب، هنري مايو، يحيى، جان، ريموند بيشار بالإضافة إلى نقيب المحامين الشيوعيين السيد بيران والمحامين الثلاثة الذين عينهم الحزب الشيوعي للدفاع عن فرنان، وهم: ألبير ساماجا، شارل لين، جو نوردمان، يضاف إلى هؤلاء والد فرنان السيد باسكال، وباية التي أحياها هنري مايو، والشاعر أراغون.

بينما يتشكل الصف الشيعي عند فتيلينة من : ريموند بيشار، ومصطفى لقرع، ومدير المدرسة السيد هنري بودياك وشقيقه مورييس بودياك ومحامي الحزب الشيعي الذي دافع عنهما، وهنري علاق ولوسي، وخالة ريموند بيشار، وزوج خالتها، ومورييس أودان، وفرنان إيفتون.

وقبل الخوض في رسم معالم الصورة ، تجدر الإشارة هنا إلى أن الروائيين معا- جوزيف أوندراس ومحمد فتيلينة- جمعا بين شخصيات تاريخية معروفة حقيقة في مسار الحركة الشيعية في الجزائر، وهي على وجه الخصوص: هنري مايو، ريموند بيشار، فرنان إيفتون، مورييس أودان ... وهم مناضلون شيوعيون وهبوا حياتهم من أجل الجزائر.

وشخصيات شيوعية أخرى ذات ملمح ثقافي عالي مثل الشاعر لويس أراغون، والمثقف الملتزم هنري علاق، صاحب كتاب: السؤال، الذي خصصه لفضح جرائم التعذيب في الجزائر.

إلى جانب هذه الشخصيات- ومن أجل ضرورات التخيل الروائي- أقحم الروائيان شخصيات متخيلة تدور في فلك الشخصيات التاريخية المذكورة آنفا.

وقد أسفرت عملية الدراسة والتحليل عن استخلاص الصورة الآتية :

يبدو الشيعي في الروايتين بصورتين:

5.1 الشيعي الحذر، المفكر، المثقف

وهي صورة، تتشكل في رواية أوندراس من مجموع الأعمال والتصرفات التي يبديها أفراد الخلية الشيعية التي يعمل ضمنها فرنان قبل وبعد إلقاء القبض عليه، حيث يبين أوندراس ذلك الجانب من الحذر والذكاء لدى الشيعي عندما يصف طريقة فرنان في التحضير لزراعة القنبلة، ومداومته على حمل الحقيبة الرياضية ليعود الحراس على مظهره اليومي، ومعاينته للمبنى الذي يخطط لوضع القنبلة فيه، وعندما يذكر براعة أفراد الخلية الشيعية في صنع القنابل واهتمامهم إلى حيلة وضعها في علب الأحذية، ومن خلال مشهد محاولة جاكين وجيلالي التخلص من القنبلة، أين يفكر الاثنان في نقلها إلى جان المتخصص في تفكيك المتفجرات عبر علبة سكر معدنية بطريقة أقل ما يقال عنها أنها ذكية: "تفتح جاكين إحدى الخزانات كي تخرج علبة سكر معدنية. تفرغها من محتواها وتحاول أن تضع القنبلة ... تنزع اللصيقة من على علبة السكر، تلصقها بعناية على المغلف. هذا سيموه في حال فتشونا" (أوندراس، 2018، صفحة 17). ، ومن خلال توصيات جان الذي يبين حرصه على سلامة الاثنين فيوصيهما بالتزام الحذر في طريق العودة وضرورة الانفراد من حين لآخر.

إضافة إلى ذلك، يكشف أوندراس عن الجانب الثقافي ودوره في التكوين السياسي لدى الشيعي، حيث يبدو أن أفراد الخلية الشيعية التي ينتمي إليها فرنان كانوا على قدر عال من الكتابة والقراءة، ومنهم من كان يحسن استعمال الآلة الرقنة؛ فهذا فرنان في السجن يقرأ هدية القس "البؤساء" والجرائد التي يحضرها له محاموه

ورسائل زوجته هيلين ويسأل الأخيرة عن عناوين الجرائد ، ويكتب لها الرسائل، وهذا هنري مايو كان يعمل في جريدة "ألجي ريببليكان". وهذا جيلالي يستخدم الآلة الراقنة لكتابة مقال عن حادثة فرنان ومحاولة التفجير. وهؤلاء المحامون الثلاثة يكتبون ويقرأون ويعرفون مختلف القوانين، حيث يذكر أوندراس أن الحزب الشيوعي له محامون يكلفهم بالدفاع عن فرنان (ألبير ساماجا/شارل ليبي /جو نوردمان)

ليس غريبا أن يتمتع المناضل الشيوعي بذلك القدر من الذكاء فهو الذي يستمد أطروحاته من الحزب الشيوعي الفرنسي الذي " لم يغامر في اتخاذ قرار المناهضة العلنية للاستعمار خوفا من مضايقات السلطة الفرنسية، وبالتالي فقد سعى للتفاوض بدل القتال والعناد " (كلافيل، 2022، صفحة 34). و حتى الحزب الشيوعي الجزائري الذي تأسس في عشرينيات القرن العشرين، كان بمثابة فرع فقط للحزب الشيوعي الفرنسي، قراراته مرتبة به، رغم انعقاد مؤتمره التأسيسي عام 1936 و الذي أبان خلاله عن نوع من الاستقلالية في اتخاذ القرار.

أما محمد فتيلينة، فيركّز كثيرا على الوجه السياسي للمناضل الشيوعي ومستواه الثقافي، وذلك من خلال الإشارة إلى المستوى الثقافي الذي كان يميّز شخصيات: مصطفى لقرع ومدير المدرسة هنري بودياك وشقيقه موريس بويك؛ حيث جاء في مستهل الرواية أن مصطفى لقرع لطالما حاول إقحام صديقه أوجي في أمور السياسة، هذا الأخير يؤكد على النزعة السياسية الواقعية لدى الرجل أكثر عندما يصفه وهو يبدي إعجابه الشديد وتأثره بريموند: "كان يتحدث بلهجة السياسيين، ونسي أنني لم أكن لأناقشه في قناعاته السياسية ... " (فتيلينة، 2021، صفحة 24)

يتذكر أوجي أيضا قدرة صديقه مصطفى لقرع على القراءة والكتابة واهتمامه بالجرائد ذات الطابع السياسي التي كان يحضرها له هو من المدينة، ويتذكر كيف أن صديقه قرأ كتابا للمنظر الشيوعي لينن ، وبعض المقالات لسياسيين شيوعيين وتأثر بأفكارهم: "يحتفظ لقرع بكتابه أسفل الدرج المقابل لباب الكشك الصغير، وفوقه عناوين -أذكر بعضها- تعيد أمجاد الحزب المحظور في فرنسا. يبدو أن الأمر يرتبط بعلاقة أعضائه الفرنسيين بكل من يحمل السلاح في الجزائر. كلما تحدث عن فرنسا، أستنتج أن لقرع ضليع بالمعجم السياسي" (فتيلينة، 2021، صفحة 37).

أما بالنسبة إلى شخصيتي المدير هنري بودياك وشقيقه موريس بودياك، تتذكر أركاديا كيف كان مدير المدرسة يحاول من حين لآخر استرجاع مجده الحزبي من خلال دخوله في جدال مع بقية المدرسين بنوع من المرونة: "يتجادل كعادته مع كل المدرسين ، ورغم عدم تسامحه معنا في الأمور المهنية، إلا أن له شيئا من المرونة يجعله يناقش كل الأفكار والتيارات السياسية وإن مارس حديثه الإدارية ... " (فتيلينة، 2021، صفحة 100).

و يتذكر أوجي انفراده به في مكتبه أين أخبره الأخير بأن أخاه مورييس "كان يعمل محررا للجريدة المعروفة الجزائر الجمهورية، كانت الجريدة الوحيدة التي فتحت خطها التحريري لكل التيارات السياسية" (فتيلينة، 2021، صفحة 139)، وأنه وشقيقه كانا من أبرز أقلام تلك الجريدة التي صودرت فيما بعد مما اضطر الأخير إلى إصدار جريدة أخرى سرا.

إن هذه الملامح التي رصدناها في سردية أوندراش و فتيلينة، بخصوص كون الشيوعي مثقفا، متمرسا بالنضال، ليست بعيدة عن الحقيقة التاريخية، فالأدبيات الثورية تشير في معظمها إلى الجهود المضنية التي بذلها الحزب الشيوعي في تكوين مناضليه و تعليمهم القراءة والكتابة وتحريرهم من ربقة الأمية وتدريبهم على الممارسة النقابية والسياسية، فالخلايا الشيوعية استطاعت أن تصل إلى العمال البسطاء في المصانع والمزارع، ومنحتهم التكوين الإيديولوجي الثوري الذي مكّنهم من الصمود حتى في أحلك فترات المقاومة.

تلك السياسة الثقافية حسب روبرت يونغ "هي نفسها نتاج لمفهوم الثورة الثقافية التي طورها أولا اشتراكيو العالم الثالث و شيوعيوه - على يد كونوللي، مارياتغوي، ماو، فانون، كابرال - كاستراتيجية لأجل مقاومة الاختراقات الأيديولوجية للكونلونالية و الكولونالية الجديدة." (يونغ، 2018، صفحة 51)

5.2 الشيوعي الشجاع، الصبور، نصير القضايا العادلة

يسجل هذا الجانب من الصورة حضوره اللافت في الروايتين، ويمثل سمة مميزة للعلمين. فصفتنا: الشجاعة والصبر تجسدتا عند أوندراش في شخصيتي فرنان وفابيان: الأول كان قد حكى لعائلة هيلين كيف أن والده باسكال كان "دائما في مئزر العمل الأزرق ، وعلى رأسه كاسكيت، دائما، هو من بنى منزلهم. السبت والأحد كان كل واحد منهم يثني أكامه ليساعده وفرنان كان يهتم بخلط الرمل والإسمنت" (أوندراش، 2018، صفحة 101). وعندما يشرع الجنود في تعذيبه بالمخفر يصر على التماسك من أجل الآخرين: "يجب أن أتماسك، يقول لنفسه، أتماسك جيدا. لأجل هيلين وهنري والرفاق والبلاد" (أوندراش، 2018، صفحة 18).

لم يكتف فرنان بالصبر لوحده، بل راح يزرع ثقافة الصبر هذه في نفس ابن هيلين، جان كلود حين يعاتبه في إحدى رسائله، ويحثه، على ضرورة اتباع سيرته والافتداء به وبكل شيوعي إن هو أراد أن يصبح رجلا: "لقد عشت معي وتعرف كيف هو الشيوعي. حربنا صعبة لكننا سننتصر. لست المحكوم بالإعدام الوحيد ..." (أوندراش، 2018، صفحة 116). وعند توديعه لبكري الذي انتهت عقوبته، يحثه على ضرورة إثبات الوجود والاستمرار في مضايقة المستعمر إلى غاية كدسه نهائيا عن الأرض: "بلغ سلامي لعائلتك. أنجب أطفالا، بكري، اجعل رؤوسا صغيرة تنبت على هذه الأرض القذرة، اغسل كل هذا الدم عنا ..." (أوندراش، 2018، صفحة 123).

بينما الثاني (فابيان)، فعند القبض عليه وتعنيفه، ثم اقتياده إلى مركز الشرطة ظل يشتمهم ويتوعدهم بالشیطان والجحيم. وأثناء تعذيبه في مركز الشرطة يبذل أقصى ما يملك من جهد كي يتماسك أطول فترة ممكنة "يعض فابيان خدوده من الداخل ولا تخرج أي كلمة من فمه" (أوندراش، 2018، صفحة 40).

أما صفة المخاطرة والتضحية من أجل الآخرين ونصرة القضايا العادلة عند أوندراش، فيبين عنها أعضاء الخلية الشيوعية التي كان فرنان يعمل ضمنها، حيث يذكر أوندراش أن هؤلاء قرّروا الوقوف إلى جانب الشعب الجزائري في محنته ضد المستعمر و فضلوا الشهادة على الصمت؛ فهذا فرنان في ضيافة جدّه بباريس رفقة هيلين يبدي تدمره من الوضع القائم في الجزائر: "السلطات الفرنسية لا تريد أن تسمع لمطالب المسلمين الأهالي كما يسمونهم. أمر عبثي، فوق كونه وقحا. سيقودنا هذا مباشرة إلى الحائط، صدّقيني، بدون منعرجات ولا أي شيء، الأنف على الحجر مباشرة" (أوندراش، 2018، صفحة 40).

كما سمح له هذا الوعي التاريخي نفسه بربط القضايا العادلة بعضها ببعض، إذ يؤكد قائلا: " انظري إلى الهند الصينية الآن، هوشي منه قال لهم بوضوح إن عليهم طي الصفحة، ... " (أوندراش، 2018، الصفحات 70-71). أملا أن يأخذ الجزائريون العبرة بالفيتناميين: "... يجب أن نقطع مع هذا النظام، نخلص الجزائر من هؤلاء الملوك الصغار ونؤسس نظاما جديدا على قاعدة شعبية، من العمال العرب والأوروبيين..." (أوندراش، 2018، صفحة 73).

وهذان جيلالي وجاكين يخاطران من أجل إيصال القنبلة الثانية إلى جان لتفكيكها وسط تلك التعزيزات الأمنية المشددة، وبعد عودتهما يكتبان مقالا يعتبران من خلاله الجزائر بلد الشيوعيين مستقبلا بعد تحقيق الاستقلال.

وهذا نوردمان يسرد على فرنان، داخل الزنزانة التي يقبع فيها الأخير، تلك المعاناة والمضايقات التي عاشها هو وبعض الشيوعيين على يد الألمان في سبيل تحرير فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية، ويقص عليه جانبا من التاريخ النضالي للشاعر الشيوعي أراغون: "... عرفته خلال الاحتلال. كنت قد أخفيت أوراقا في لباسي الداخلي، ملفوفة داخل الخياطة، كنت قد تلقيت الأمر بتسليمها له. كان هذا في نيس، ... كان من دون أخبار عن الحزب منذ بضعة أشهر" (أوندراش، 2018، صفحة 132).

وهذا هنري مايو يحكي للصحفي عبد الحميد عن بعض جرائم العسكر الفرنسي بالجزائر مؤكدا على ضرورة الانتقام من هؤلاء: " أقسم بأنه يجب قتل كل المظليين واحدا واحدا، بأنه يجب تفجير كل هذا النظام " (أوندراش، 2018، صفحة 142). هنري الذي تم دمج كضابط صف بحري في فوج للجيش الفرنسي نهاية 1955، اختار الوقوف إلى جانب الجزائريين عندما غامر بحياته و حوّل شاحنة السلاح إلى الجبل ليوزعه على المناضلين. هؤلاء " ... شكلوا جماعة مسلحة، تحارب الجيش الفرنسي دون أن تنضم إلى صفوف الجبهة" (أوندراش، 2018، صفحة 142).

إن الوعي الطبقي الثوري، مكن الشيوعيين من أمثال فرنان إيفتون وهنري مايو من تجاوز الحدود العرقية والدينية واللغوية، ليضعوا نصب أعينهم شيئا واحدا هو القضايا العادلة في كل مكان وزمان، نرى ذلك بوضوح في أقوال هنري مايو: " لست مسلما، كتب قبل ذلك بوقت قليل، لكني جزائري من أصل أوروبي. أعتبر الجزائري وطني. أعتبر أنني ملزم تجاهها بنفس الواجبات مثل كل أبناءها. في الوقت الذي انتفض فيه الشعب الجزائري كي يحرر أرضه الوطنية من استعباد المستعمر، مكاني إلى جانب أولئك الذين التزموا بالنضال التحرري... الشعب الجزائري الذي أهين و أذل طويلا، أخذ أخيرا مكانه في الحركة التاريخية الكبيرة لتحرير الشعوب المستعمرة والتي تضم إفريقيا وآسيا..." (أوندراس، 2018، الصفحات 143-144).

وهذا ما أكد عليه هنري علاق فيما بعد في مذكراته عندما بين بأن "الاستراتيجية الوحيدة المقبولة للتقدم في طريق تحرير الجزائر وأكثر من ذلك جميع بلدان العالم الثالث تتطلب اتحادا متينا مع جميع قوى التقدم والتي تعبر في فرنسا على الخصوص من خلال المقاومة وعمل الشيوعيين، بقوة متنامية وتطالب أيضا بتضامن دولي غير مشروط مع جميع الحركات التحررية الوطنية والاجتماعية" (علاق، 2007)

هذا فيما يتعلق برواية "عن إخواننا الجرحى"، أما رواية "رعاة أركاديا"، فإن صاحبها لم يركز كثيرا على صفة الشجاعة لدى الشيوعي، إذ اكتفى ببعض المشاهد التي تصوّر بطولة المناضلة الشيوعية ريموند بيشار، ومنها ذلك الجدل الذي يقوم بين أركاديا وأوجي الذي يؤكد فيه الأخير لأركاديا بأن ما قامت به شقيقتها كان الصواب، وأن شجاعته كانت عاملا في تكوين شخصيتها: "الدليل أن الإنسان يحتاج إلى قرار شجاع. الدليل أن ريموند كانت شجاعة في تنفيذ ما يعجز عنه الكثيرون أنا ربما وأنت!... كانت ريموند أشجع من الكثير! علينا أن نعترف" (فتيلينة، 2021، صفحة 111).

وفي المقابل، فقد ركز فتيلينة في روايته أكثر على جانب التضحية من أجل الآخرين وعلى نصرة القضايا العادلة والمظلومين، يتجلى ذلك في رسم شخصية ريموند، فبعد قراءته المقال الذي تضمن استشهاده، أدرك مصطفى مدى التضحيات التي قدمها أمثال ريموند قائلا لأوجي: "أدركت أن هناك من يحب هذه البلاد أكثر مني، وربما أكثر منك" (فتيلينة، 2021، صفحة 24).

لقد صارت ريموند بيشار أيقونة النضال الشيوعي النسوي، تماما مثلما صار فرنان إيفتون وهنري مايو رموزا للنضال الشيوعي الرجالي، وهذا ما نراه جليا في قول أوجي: "وحدهم الأحرار قادرون على صناعة المعجزات. ريموند التي تعتبرها مجرد رقم، هي الحرة الوحيدة وسط آلاف العبيد!" (فتيلينة، 2021، الصفحات 24-25).

نجد نفس الإطراء على ريموند بيشار في أقوال شقيقتها، إذ صرحت: " كلمة الوطن لها وقع خاص هنا في الجزائر، وتحمل معنى لا يعرفه غير شقيقي ريموند وأمثاله... ماتت شقيقي وهي في سنّ الثلاثين، إلّا أنّ روحها ما تزال تحلق في سماء الجزائر. قبل أن تغادر الحياة قرأت قصاصاتها. لطالما ردّدت في تلك الصفحات بأنّها لم تحب فرنسا وطنها الأم، بل أحبت الوطن الآخر!" (فتيلينة، 2021، صفحة 29).

ويختتم أوجي الحديث عن بطولات ريموند وتضحياتها في مشهد اللقاء الأخير بينه وبين أركاديا، مؤكداً أن ريموند ليست حالة معزولة، وأن العامل الديني ليس حاسماً على الإطلاق حين يتعلق الأمر بالثورة ونصرة القضايا العادلة: "... ولكنها قد تتجاهل بأن الجزائر التي نعيش فيها، تحتضن الكثير من أمثال ريموند، ممن لا يؤمنون بالبعث ولا بالقيامة ولكنهم حاربوا من أجل أن يتمتع الكثير من الجزائريين ... معركة الجزائر هي ماركة مسجلة باسم رفاق ريموند بيشار، مثل فيرنون إيفتون وموريس أودان وهنري علاق وغيرهم. ألم يكن أولئك الشباب الشيوعيون يحملون الهوية الجزائرية؟ هل تدرك بأن مدير مدرستنا هنري بودياك -بعكس أركاديا- لم يندم على بقائه في الجزائر؟ ... " (فتيلينة، 2021، الصفحات 194-195).

هكذا يتبين لنا أن الروائيين معا - جوزيف أوندراش ومحمد فتيلينة- رسماً تقريباً نفس البورتريه للمناضل الشيوعي، مع ملاحظة أن أوندراش ركز على شخصية فرنان إيفتون كرمز للتضحية، بينما ركز فتيلينة على شخصية ريموند بيشار كأيقونة للنضال الشيوعي النسوي. وهذا بفعل التطور التدريجي للأفكار الشيوعية و موقف الشيوعية من الكولونيالية إذ يمكن اعتبار نجاح الثورة البلشفية في روسيا 1917م، وقيام الأمم المتحدة بعد ذلك 1919م، المرحلة الحاسمة التي جاهرت فيها الشيوعية بموقفها المعادي لكل أشكال الاستغلال والاستعمار داعمة حركات التحرر عبر العالم، فمنذ ذلك التاريخ "ما انفك القادة (سواء الفرنسيون أو الجزائريون) يؤكدون على أن المعركة التي يخوضونها إنما هدفها هو استقلال الشعوب المستعمرة" (علاق، 2007، صفحة 82)

يبدو أن التجربة الإفريقية كانت الأكثر تأثيراً في هؤلاء الشيوعيين الأوروبيين الذين نبذوا مختلف الأفكار المتطرفة كالانتماء العرقي أو الجغرافي، " فمع أن سيزار مثلاً كان عضواً مخلصاً في الحزب الشيوعي المارتينيكي، فإنه يضع أفريقيا على أنها المقابل الثنائي لأوروبا، أوروبا المنحطة المبتلاة التي لا يمكن الدفاع عنها" (لومبا، 2007، صفحة 37).

هكذا تبدو صورة الشيوعي في الروائيتين أقرب إلى التمجيد والعرفان من أي خطاب آخر، مع الملاحظة بأن جوزيف أوندراش أكثر التحاماً بالخطاب الإيديولوجي لبطله وللحزب الشيوعي الجزائري، لسببين على الأقل: الأول كونه أيضاً شيوعي ملتزم بالنهج الماركسي الثوري في كل مواقفه، بما فيها رفضه جائزة الغونكور انطلاقاً من رفضه سلعة الأدب وجعله أداة في يد مؤسسات بورجوازية تفرغه من محتواه الإنساني. والسبب الثاني هو اطلاعه الواسع على تاريخ الحزب الشيوعي الجزائري ومسارته النضالية قبل الثورة التحريرية وبعدها.

أما محمد فتيلينة، فقد اكتفى بإنتاج صورة إيجابية عن المناضل الشيوعي، انطلاقاً من سيرة حياة بطلته ريموند بيشار، مع التركيز على جانب التسامح الديني والثقافي.

لقد ساهم موقف الإعجاب الذي أبداه الروائيان أوندراش وفتيلينة بتلك الشخصيات الشيوعية التي سجلت حضورها في الروايتين في بلورة و رسم صورة إيجابية للشيوعي. فرغم تلك الاختلافات الموجودة بين الثقافتين اللتين أفرزتا هذين العاملين إلا أن الروائيين تمكنوا من تقديم صورة تكاد تكون موحدة عن الشيوعي. وذلك راجع ربما إلى التحول الذي عرفته الرواية الغربية في مرحلة ما بعد الكولونيالية، خصوصا وأنها تزامنت مع المدّ التحرري العالمي واهتم أصحابها بقضايا التحرر، بالإضافة إلى اهتمام الروائي الثالثي بفئة من الأوروبيين الذين فضلوا الوقوف إلى جانب الشعوب المستعبدة

حيث صوراه على أنه: حذر، مفكر، مثقف، شجاع، صبور، ينصر القضايا العادلة، ويضحي بنفسه من أجل حرية المستضعفين ، فضلا عن كونه مسالما، ينبذ العنف، ويأمل في تقريب الشعوب.

ومع ذلك فقد رصدنا بعض الفروق، منها:

- قلة حضور الشخصيات الشيوعية في رواية "رعاة أركاديا" مقارنة بحضورها في رواية "عن إخواننا الجرحى" جعل الصورة المقدمة عن الشيوعي تظهر بشكل أجل وأوضح في الثانية مقارنة بالأولى، وإن كانت الرؤى بينهما متوافقة إلى حد بعيد.
- عمل السياق ما بعد الكولونيالي على خلق سردية مضادة أسهمت بشكل مباشر في التحرر من المخيال الغربي الكلاسيكي المنطوي على عقدة أورو مركزية، وهو ما سمح للروايتين معا اجتناب الوقوع في فخ التنميط والآراء المسبقة الجاهزة عن الشيوعي .
- أسهم السياق نفسه؛ أي ما بعد الكولونيالي، في تمكين الروائي الجنوبي من القدرة تقديم صورة عن الآخر دون أحكام مسبقة بعيدا عن النزعة الأيديولوجية الانتقامية. ممّا يثبت قدرته على مقارعة التجارب الروائية العالمية المعاصرة
- تتفق الروايتان في الرؤية عندما تقدمان صورة الشيوعي المحببة تارة والمثيرة للشفقة و التضامن تارة و الجديرة بالفخر والاعتزاز تارة.
- وعلى عكس الكثير من الروائيين الجزائريين، قدم محمد فتيلينة صورة الشيوعي المقاوم، الذي لا يقل حبا للوطن عن مناضلي جبهة التحرير الوطني، وهو خطاب تاريخي مميز ومنصف لنضالات الحزب الشيوعي الجزائري.

7. قائمة المراجع:

- أنيا لومبا. (2007). في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية (الطبعة الأولى). (محمد عبد الغني غنوم، المترجمون) اللاذقية، سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- جان كلافيل. (2022). ضمن: جنود الرفض أثناء حرب تحرير الجزائر (هنلاي علاق وآخرون)، الجزائر، الجزائر: دار الحكمة للنشر.
- جوزيف أوندراش. (2018). عن إخواننا الجرحى. (صلاح باديس، المترجمون) الجزائر، الجزائر: منشورات البرزخ.
- حلمي خضر ساري. (1999). المرأة كـ "آخر" دراسة في هيمنة التنميط الجنساني على مكانة المرأة في المجتمع الأردني، في الطاهر لبيب وآخرون، صورة الآخر العربي ناظرا و منظورا إليه (الطبعة الأولى). (الطاهر لبيب، المحرر) بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.
- دانييل هنري باجو. (1997). الأدب العام والمقارن. (غسان السيد، المترجمون) دمشق، سوريا: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- روبرت يونغ. (2018). ما بعد الكولونيالية (الطبعة الأولى). (عدنان حسن، المترجمون) اللاذقية، سورية: دار الحوار للنشر والتوزيع.
- محمد فتيلينة. (2021). رعاة أركاديا (الطبعة الأولى). سيدي عيسى، المسيلة، الجزائر: ضمة للنشر والتوزيع.
- همت عبد العزيز بسيوني. (2013). الشخصية المصرية و صورة الآخر (الطبعة الأولى). القاهرة، مصر: دار مصر العربية للنشر والتوزيع.
- هنري علاق. (2007). مذكرات جزائرية. (جناح مسعود عبد السلام عزيزي، المترجمون) الجزائر، الجزائر: دار القصة للنشر.
- يونس الحمداني نوافل. (2012). الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر. مجلة ديالي، الصفحات 643-665.